فالخيال الذى يحلق بصاحبه فى أجواز الفضاء فى ظلمة الليل وسكونه لا يليق به بعد ذلك أن يراها كالهاوية المقلوبة ، ثم لا يقنع بهذا وصفا فيراها كالجمجمة المنخوبة ، وليست الجمجمة المنخوبة إلا عظمة مظلمة ضئيلة .

يقول العقاد : ولو تذكر الصديق أن السماء تروعنا وتهولنا ، ولا نقول إنها تسرنا وتبهجنا ، لتذكر أيضا أن أشبه شيىء بالروعة والهول هو وقفة الإنسان حين ينظر متهيبا على حافة الهاوية ، وأن فراغ السماء المظلم الرهيب ـ وفيه النجم ـ كفراغ الجمجمة التى تخيفنا وتهمس فى نفوسنا بالذكر المحبوبة ، أو تخيفنا لأنها تهمس فى نفوسنا بتلك الذكر ، وهى على تلك الحال الموحشة . وليست الجمجمة عظمة ضئيلة ، ولكنها أهول خواء فى الدنيا لأنه خواء الرأس الإنسانى ، ومافيه من فكر ورجاء ، ومشاهد وعوالم ، وهى أهول من السماء والنجوم ، لأن السماء والنجوم بعض ما تهمس به من ذكر الحياة .

وخليق بنا أن نقول هنا إن الجمجمة المنخوبة كأى شيء آخر ينظر إليها من وجهات متعددة ، وأن اعتبارها عظمة ضئيلة لا يعدو أن يكون دفاعا جماعيا متوارثا ساذجا عن الحياة . وخليق بنا لو أردنا أن نتعمق مشكلات الفهم أن ندرس الاستجابات المتراكمة فى العقل العربى ، وأن نفرغ لها فاحصين ، وأن نأخذ نماذجها من الشعر والنثر والقص والرحلة والفلسفة جميعا بنسب متفاوتة .

قصة الاستجابة المخزونة قصة متشعبة :

رب طفل قد ساخ فى باطن الآر ∴ ض ينادى امى ابى ادركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجمر ∴ تعانى من حره ما تعانى
واب ذاهل إلى النار يمشى ∴ مستميتا تمد منه اليدان
تاكل النار منه لا هو ناج ∴ من لظاها ولا اللظا عنه وان

قرأ بعض الأدباء هذه الأبيات ، ثم قال حبذا هى لولا تمد منه اليدان ؛ فهذه شهد الله من ضرورات النظم لم يكن للشاعر بها يدان .

قال العقاد حبذا هذه الضرورة التى وفقت حافظا لخير مايقال فى هذا الموقف ، فلو أنه استطاع أن يقول يمد اليدين لما أتى بشىء ، ولهمد فى البيت معنى الهول الذى